

خطاب الجنون في التراث العربي

I

الحضور الفيزيائي والغياب الثقافي
(الاستبعاد والتّفي)

أحمد بن علي بن أحمد آل مريع

٢) شركة العبيكان للتعليم، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل مريع، أحمد علي أحمد

خطاب الجنون في التراث العربي / أحمد علي أحمد آل مريع - الرياض، ١٤٣٥هـ

۳۳۶ ص، ۱۴ × ۲۱ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٣-٦٦٤-١

١. الأدب العربي - نقد
٢. الرسائل

٣. التراث العربي أ. العنوان

ديوي: ۸۱۰

رقم الإيداع: ١٤٣٥/١٦٤٦

لوحة الغلاف



للضمان السعودي: د. علي عبدالله مرزوق

الطبعة الأولى

٢٠١٤/١٤٣٥ هـ

جميع الحقوق الفكرية والطباعية محفوظة للناشر

الناشر

**Obéll
Obékon**

الرياض، المحمدية، طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥، ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرمز: ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت: www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على آبل: <http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store>

امتياز التوزيع

مكتبة

الرياض، المحمدية، طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣ ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة ن سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

قالوا عن الكتاب

«يعلم الله إني قد شاركت في مناقشة رسائل عدّة في داخل الوطن وخارجه. وكثير من الرسائل يفيد فيها المناقش الطالب حين يقرأ رسالته، ولكني أقول إني قد استفدت من هذه الرسالة، وزادت في علمي ومعرفتي، وقلت للدكتور عبد الله الغدّامي لقد أتعبتني الرسالة لأنها دسمة لحدّ التخمة. ومن هنا فمناقشتي هي محاورة ومشاركة، على قدر العقلية الكامنة في جيوب الرسالة. ومن إيجابيات العمل، وهي كثيرة: اختيار الباحث لموضوع شائك يعد مغامرة يشكر عليها، ولا يغشى مثل هذه الموضوعات إلا الفرسان. وإحاطة الباحث بالتراث ونظراته الواسعة إلى الرؤى والمناهج الحديثة وقدرته على الكر والفر، وصياغة الدراسة راقية، ولغتها حديثة تتجاوز الأسلوب التقليدي وتتجاوز لغة الرسائل المألوفة، وهوامش الدراسة ممتلئة بالفكر ومركزة، وفيها بحث آخر يستحق التقدير».

أ.د. عبدالله المعطاني

«بحث علمي جاد.. شديد الإحكام، يمثل إضافة نوعية للمتخصصين وللمكتبة العربية في حقل معرفي ما زال بكرًا. وقد استمتعتُ حقيقة بهذا البحث، وأرجو الله ألا يصرفك صارف عن إنجاز ثلاثية هذا المشروع، وستكون بعد اكتمال مشروعه رائدًا من رواده الكبار، الذين مارسوا الحفر المعرفي في غابات الثقافة الإنسانية ليخرج بهذا التحليل العلمي الرصين».

أ.د. صالح بن سعيد الزهراني

« ما لفت نظري وأنا أتصفح هذه الدراسة الجادة للباحث الجاد الدكتور أحمد آل مريع قدرة هذا الباحث المتمرس على سبر أغوار موضوعه ولم شتاته - رغم روعه وروغانه - من خلال الغوص في أعماق التراث والقبض على كل ما له صلة بموضوعه ومساءلته، بمنهجية علمية دقيقة؛ تقدم المقدمات وتستخلص النتائج، فعرض لمفهوم العقل رابطاً بينه وبين مفهوم الخطاب، فمفهوم الجنون، ثم عرض لتلقي الجنون في اللغة وفيما أسماه بـ«منطقة المفاهيم» ثم في ممارسات المؤسسة الفقهية والأدبية، بلغة سلسلة وأسلوب أخذ». أ.د. عبد الواسع الحميري

«أفكار البحث تستفز القارئ استفزازاً كبيراً، وهو أقرب أن يكون موضوعاً في الفلسفة منه إلى النقد الأدبي، أو ما هو متداول في أقسام اللغة العربية. وأمدح فيك هذا الجهد الكبير الذي قمت به، وقد لفت انتباهي أمران مهمان أولهما: المنهجية المنضبطة التي تأسس عليها البحث، والأمر الآخر: أنك تقود بحثك، وأن بحثك لم يسيطر عليك، وهو ما يبدو مميزاً جداً لديك مقارنة بمن هم في مثل مرحلتك البحثية. وهذا يتضح من وعيك بجزيئات النقد الثقافي، وطريقة تقسيم البحث، ومعرفتك بما يوضع في المتن وما يوضع في الهامش. والهامش في البحث بحث مواز، ويمكن لنا مناقشته مناقشة مستقلة».

أ.د. أحمد حسن صبرة

«هذه الدراسة تتضمن كثيرًا من المحاسن، ومن مميزاتنا أنها دفعت الباحث إلى أن يقرأ كثيرًا، وبإلقاء نظرة فاحصة على قائمة المصادر يتبين حقيقة ذلك، وقد أفدت كثيرًا مما جاء في هذه الرسالة. كما أن الرسالة جاءت خالية تمامًا من الأخطاء النحوية والطباعية، وفيها جهد مميز في استنطاق النصوص...»

أ.د. محمد بن عبد الرحمن الهدلق

«إيجابيات العمل كثيرة ومحروسة.. عمل محرض لا لإثارة حوار حوله ونقاش فحسب؛ وإنما هو عمل محرض لأعمال أخرى قادمة. هذه منطقة أعتقد أنها تستحق جملة من الدراسات عن خطاب الجنون في التراث العربي. أنت شرعت الأفق لهذه الدراسات، ووضعت عملاً مميزاً أعتقد أنه سيحسب تأسيسياً في دراسة هذه المنطقة. ولكنه أيضاً كأى عمل تأسيسى يرود منطقة جديدة تكون الفجوات والقفزات موجودة. في مناقشتنا سيكون حديثنا نابغاً من شخصيتك في هذه الرسالة...»

أ.د. محيي الدين محسب

obeikandi.com

حكاية الكتاب

د. عبد الله بن محمد الغدامي

أستاذ النقد والنظرية بجامعة الملك سعود

والمفكر المعروف

مرت سنوات وما نسيت تلك الجلسة في مكتبي بالجامعة، حيث طرق بابي وكنت أنتظره ليأتي إليّ بموضوع لأطروحته للدكتوراه، يأتي إليّ بموعد محدد وكان رهاني دوماً على أي طالب يأتيني لأمر كهذا هو أن يقرأ لوحة علقتها على الجدار الزجاجي الخارجي لمكتبي، ومكتوب عليها بالخط العريض: (إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه لن يفلح) وتحتها يتسامق اسم الجاحظ، وهي كلمة عليها بعض كلام فهي لم ترد نصاً عند الجاحظ وإنما ورد بعض جمل تشابه هذا وإن لم يكن بدقته، ولكنني وضعتها بهذه الصياغة لأنها تليق بالجاحظ حتى لأحسبه قد أملاها علي، ثم هي تصف سيرة الجاحظ، مثلما أنها شرط ضروري للتحفيز البحثي والاجتهاد العلمي، ومقامها على واجهة مكتبي يخدمني في رسم خارطة ذهنية لكل طارق لباب المكتب، وهذه تبريرات علمية

كافية كي ننسب القول للجاحظ ونسلح بالقوة المعنوية باسمه لتسويق الفكرة، إضافة إلى ما ورد في بعض الكتب من قول منسوب للجاحظ يقارب هذا القول، ولعل من نقل ما يشابهها من قبل كان يفعل مثلي، أي أنه يريد هذا المعنى ويستقوي بالجاحظ كي يمرر الفكرة ويسلحها بذخيرة تقويها.

هذه صيغة باب مكتبي في الجامعة وقد صار للجملة قصص كثيرة من الطلبة الذين يقفون أمامها ملياً حين مرورهم من عند مكتبي، ومع أولئك الذين يلتقطون الصور لها ثم يعممون في تويتر وغيرها، وكذا هو الأمر مع كل من يدخل على مكتبي بغرض مهمة بحثية.



هنا يحضر أحمد، ولا شك أنه قد تشبع بالجملة مراراً من قبل وقد مر عليه في قسمنا ما يقرب من العامين كما إنه قد درس معي مادة (نظريات النقد المعاصر) وكان بمفرده معي إذ لم يسجل في المادة غيره حينها، وهذا يعني أنه دخل عندي عشرات المرات وعشراتهما عبر جملة الجاحظ التي صارت بمثابة تذكرة المرور نحو مجلسي هناك.

لكن أحمد في تلك المرة يدخل وهو محتشد نفسياً بأكثر من أي يوم مضى له معي، والسبب أنه قد جاء ليحسم أمر موضوع أطروحته، وهو تحت حصار مقولة الجاحظ، كما إن له معي خبرات غير قليلة في تخوفاتي من الإشراف على الرسائل لما عندي من عقدة من سوء اختيار الطالب لموضوعه، أو من عادية الموضوع، أو من توسل الطالب لي بأن اختار له موضوعاً، وهذه أسوء الأسوء على الإطلاق، إذ كيف لي أن اطمئن لطالب ليس في ذهنه موضوع يدرسه ويؤلف فيه، وكيف له أن يفعل إذا كان يطلب معونة أولية حتى قبل أن يفتح قلمه وفمه، وكيف ستكون حاله مع كلمة الجاحظ، جواز المرور إلى مكتبي، وهذه ورطة وقع فيها بعض من الطلبة وسمعوا مني أجوبة على طلب كهذا بحيث يقررون إعادة حساباتهم وعصر أذهانهم، وليس لي من عمل لحظتها سوى أن أمنحهم وقتاً بعد وقت، وبعد بعد وقت إلى أن تطر رؤوسهم بالمقترحات وتكون هذه هي أولى الفتوحات المعرفية لهم...

لم يوقعني أحمد في هذا ولكنه أوقع نفسه بها هو أخطر من هذا: لقد اقترح موضوعاً مجنوناً، وهنا تجننت الغرفة، رقصت لوحة الجاحظ

من خارج الإطار الزجاجي: أحمد يريد أن يبحث في خطاب الجنون في التراث العربي...!!!

انتقل الجنون لي خشية ألا تسير أمور المغامرة كما هو المأمول، ليس بسبب عقد اللجان الجامعية التي ستقول إن الموضوع ليس من تخصصات اللغة العربية وقد صار فعلاً، ولكن -أيضاً- لأنني قلقْتُ من المغبات المنهجية بما إن الموضوع يدخل في دهاليز متعرجة تحتاج لكثير من الاستعداد المعرفي، فالذي أمامي باحث تدرب على النقد الأدبي المحض، ولم يتدرب بعد على تفكيك الخطاب، وحينما قرر الدخول في مناطق التشريح اختار موضوعاً مجنوناً...!!!

كانت لحظة قلق أولية تحولت إلى قلق مزمن على مدى مدة البحث، ولكن أحمد ظل ينجح في كل قفزة يقفزها مع مجانينه، حتى لتقول إنه جنتهم بدلاً من أن يجننوه.

ومرت الأيام حتى تقاعدت أنا، وأعادني أحمد إلى القاعة لأدير جلسة المناقشة، وكنت أفعل وأنظر بعيني أحمد أثناء النقاش ثم أنقل نظري مباشرة إلى مكثبي، وهو يقع قبالة قاعة المناقشات، ولحظتها تنفست، ورأيت لوحتي عن الجاحظ تتنفس معي ونقول أنا واللوحه معاً: نعم... نعم.

نعم لأحمد...

هذا ملخص مضغوط جداً حتى يشبه لغة التغريدات في تويتر، أسوقه مقدمة لكتاب هو الموضوع نفسه، ولا شك أن كل قارئ

وقارئة للكتاب سيعرفان مرامات قولي في هذه المقدمة، وقصة أنفاسي المحبوسة من لحظة طرح الفكرة حتى لحظة مناقشة الرسالة، وهي حكاية عن قصة ليست قصيرة عن نفس محبوس، وعن لحظة أخرى انبجست فيها الأنفاس، حتى تكلمت لوحة الجاحظ وطارت عنها حبستها، وتحية لأحمد..

وسأقول ختاماً إنني في تجربتي الإشرافية مر علي ثلاث أطروحات (مع ضمير المؤنث والمذكر) لم يحوجوا سمعي لترجماني وحرروا أنفاسي من الاحتباس - وهذه واحدة منهم.

عبد الله الغدامي

الرياض ١٩ / ٨ / ٢٠١٣ م

obeikandi.com

تنويه

هذا الكتاب في أصله دراسة علمية في (النقد الثقافي) تقدم بها المؤلف إلى قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب والنقد. وقد أشرف على الرسالة الناقد والمفكر أ. د. عبد الله بن محمد الغدامي أستاذ النقد والنظرية بقسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود، وحظيت الدراسة بتحكيم ومناقشة كل من: أ. د. عبد الله بن سالم المعطاني عضو مجلس الشورى السعودي وأستاذ النقد الأدبي بجامعة الملك عبد العزيز، وأ. د. محمد الهدلق رئيس مجلس أمناء مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز للغة العربية وأستاذ النقد الأدبي بجامعة الملك سعود، وأ. د. أحمد حسن صبرة أستاذ الأدب العربي بقسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود، وأ. د. محيي الدين عثمان محاسب أستاذ كرسي الدكتور عبد العزيز المانع وأستاذ اللسانيات بقسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود، وأجيزت الرسالة بمنح درجة (الدكتوراه) مع التوصية بطباعتها ونشرها دون تعديل..

obeikandi.com

شكرٌ وتقديرٌ

أتقدم بخالص الشكر وأوفاه بعد شكر الله تعالى إلى كل من ساعدني في إتمام هذا العمل، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور: عبد الله بن محمد الغدامي، المشرف على هذه الدراسة، الذي كانت لتوجيهاته ومحاوراته وملاحظاته أثر كبير في إنجاز هذا العمل، وأتحمل أنا بمفردي ما كان فيه من خلل أو قصور، متعه الله بالصحة والعافية، وأحسن إليه.

كما أشكر كلاً من: عضو مجلس الشورى الأستاذ الدكتور: عبد الله بن سالم المعطاني (المناقش الخارجي)، والأساتذة بقسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود: الأستاذ الدكتور: محمد ابن عبد الرحمن الهدلق، والأستاذ الدكتور: محيي الدين عثمان محسب، والأستاذ الدكتور: أحمد بن حسن صبرة، على تكرمهم بقراءة الدراسة، وتفضلهم بقبول مناقشتها، وتسديد ما فيها. وسأفيد بعون الله من ملحوظاتهم ونقاداتهم وتوجيهاتهم؛ ما وسعني الطاقة والقدرة، وأسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء.

كما أشكر قسم اللغة العربية وعمادة الدراسات العليا بجامعة الملك سعود على أن أتاح لي فرصة استكمال دراستي للدكتوراه. كما أزجي ثنائي العاطر وتقديري البالغ لأخي الكريم الأستاذ خالد العميقان الذي قدّم لي خدمات عن طيب نفس وفضل منه أعجز أن أرد له حق شكرها، وكنتُ شرفت بمعرفته أثناء العمل على إعداد الدراسة، فكان نعم الأخ ونعم الصديق.

ويتوجب عليّ الاعتذار إلى كل من قصرت بحقه (رغمًا عني) أثناء الانشغال بإنجاز هذه الدراسة، وأخص بالذكر والدين كبيرين - متعني الله بحياتهما - وزوجتي وبناتي وابني، وأشكرهم على صبرهم ودعمهم.

والحمد لله، الذي بنعمته تتم الصالحات، أولاً وآخراً

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المحتويات

٢١	مقدمة الكتاب
٢٣	مفهوم الخطاب
٣١	مفهوم الخطاب إجرائياً
٣٤	فصول الكتاب ومباحثه
٣٨	في المنهجية
٤١	الفصل الأول: مفهوم العقل
٤٣	مدخل: مفهوم العقل
٤٦	العقل في اللغة
٥٢	العقل في الاستخدامات البليغة
٥٩	توصيفات العلماء للعقل
٩٧	الفصل الثاني: مفهوم الجنون
٩٩	مدخل: مفهوم الجنون
١٠٣	المعاني المعجمية للجنون
١١٢	لفظة «الجنون» في الحياة العربية
١٢٣	مفهوم الجنون في القرآن الكريم
١٣٦	مفهوم الجنون في السنة النبوية
١٤٥	الجنون فهم ثقافي / المفارقة للنظام
١٥٧	الفصل الثالث: تلقي الجنون في اللغة
١٥٩	اللغة سلطة

١٦٣	اللغة تعترف بالجنون
١٧٠	اللغة تصنّف الجنون
١٨٩	الفصل الرابع: تلقي الجنون في منطقة المفاهيم
١٩١	مدخل: منطقة المفاهيم
١٩٥	توصيف الجنون في المدونات الرسمية
١٩٥	المستوى الأول: العرض
٢٠٠	المستوى الثاني: الاختلاف
٢٠٥	المستوى الثالث: الحضور والغياب
٢١٣	الفصل الخامس: خطاب الجنون في ممارسات المؤسسة الفقهيّة
٢١٥	مدخل: صناعة القوالب الإدراكيّة
٢٢١	الخطاب في الممارسات الفقهيّة
٢٢١	أولاً: الفعل
٢٢٥	ثانياً: الأفعال الطبيعيّة
٢٢٧	ثالثاً: القدرات الطبيعيّة والإحساس
٢٣٠	رابعاً: مقول المجنون
٢٣٧	الفصل السادس: خطاب الجنون في الممارسات الأدبيّة
٢٤٠	الصورة الأولى: الإعراض والتغافل
٢٤٧	الصورة الثانية: الدّفع بكلام المجنون إلى الهامش
٢٦٣	الصورة الثالثة: تفريغ الكلام من المعنى
٢٧٥	عمق هذا الموقف من من كلام المجنون وامتداد تأثيره
٢٨١	خاتمة الكتاب
٢٩٧	فهرس مكتبة البحث

مقدمة الكتاب

مفهوم الخطاب.

مفهوم الخطاب إجرائياً.

فصول الكتاب ومباحثه.

في المنهجية.

obeikandi.com

مفهوم الخطاب

تُعنى هذه الأطروحة بدراسة: «خطاب الجنون في التراث العربي». ونظراً إلى تعدد استخدام «الخطاب» بصفته مصطلحاً معرفياً معقّداً في مجالات علمية، واجتماعية، وفلسفية، ولسانية عريضة ومتنوعة، نعرج على المسوغ العلمي لاستعمال الخطاب، وتخومه الدلالية، وعلاقته بـ«الجنون» في هذه التجربة البحثية.

حين نستخدم مصطلح «خطاب» مضافاً إلى مصطلح «جنون» فنحن نحيل -دون شك- إلى أمرين مهمّين؛ تستحضرهما الدراسة في علاقتهما بموضوع أطروحتنا من جهة، وفي علاقتهما ببعضهما من جهة أخرى؛ وهما:

أولاً: مصطلح الخطاب يتقاطع فلسفياً مع مصطلح العقل! فالخطاب انحصر منذ السفسطائيين وسقراط في حدود المعنى، وتخلص مما هو «ظني» و«نسبي» و«متغير»^(١)؛ لصالح الحصول

(١) ينظر: د. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر - القاهرة ط ١، ت ٢٠٠٠م (ص ٩٢).

علف «القطعلف» و«المطلق» و«الثابف». وفذكر د. الكبسف أن طبعفة الخطاب العقلفة «اللوعوس» فجعلنا إزاء حقل أو فضاء لا فقدم نفسه علف أنه «ثابف» أو «كلف» فحسب؛ بل فقدم نفسه أفضاً علف أنه «نقفف» وذو «معنفف»^(١).

ولهذا السبب اسفعمل الخطاب فف الفلسفة المدرسفة القدفمة منذ أفلاطون مقابلاً للإدراك بالحدس^(٢)، ومن ثم أفاد كانط من هذا التفرفق واسفعمله ففما بعد^(٣).

وقد جدّف آنذاك محاولات للمماثلة بفن الخطاب والعقل؛ وكانت فلك^(٤) أول محاولة لضبط الخطاب وعقلففة علف قواعد تُسفعم من داخل الخطاب نفسه، أكثر مما تُسفعم من أصل خرافف

(١) محمد علف الكبسف، مفشال فوكو: فكنولوففا الخطاب.. فكنولوففا السلطفة.. فكنولوففا الجسد، تونس، ط١، ف١٩٩٣ م (ص٧)، وفنظر: د. الزواوف بغورة، مفهوم الخطاب فف فلسفة مفشال فوكو (ص٩٢).

(٢) فقصء به: الإدراك المباشر لموضوع التفكفر، وفكون الانتقال فف من المجهول إلف المعلوم سرفعاً. وفقابلة الفكر، وهو أءنف مراتب الكشف. (فنظر: مجمع اللغة العربفة، المعجم الفلسفف، الهفئة العامة لشؤون المطابع الأمرفة، ط١، ف١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م (ص٦٩-٧٠)، برقم (٣٩٠)، ومراء وهبة: المعجم الفلسفف، دار قباء للطباعة والنشر والفوزفع، القاهرة - مصر، ط٤، ف١٩٩٨ م (ص٢٧٠-٢٧١).

(٣) فنظر: أنءرفه لالانء، موسوعة لالانء الفلسففة، فعرفب: د. فلفل أحمء فلفل، منشورات عوفءاء، لبنان - بفروء / فرنسا - بارفس، ط٢، ف٢٠٠١ م (١/٢٨٧).

(٤) الإشارة فرفع إلف محاولات المماثلة بفن الخطاب والعقل منذ أفلاطون..

أو وضعي يُفرض بداهة على الخطاب. وهو ما أُعتبر بداية لتبلور الخطاب الفلسفي - كما ذكر الدكتور على حرب^(١).

والخطاب - من هذه الزاوية - يقوم على المنطق والنظام والترتيب، ولذلك يدمج الفلاسفة: الخطاب في العقلاني والخطاب في العقل. ويعرّف الخطاب من هذه الوجهة؛ بأنه: «نظام من العمليات الذهنية القائمة على مجموعة من القواعد المرتبة ترتيباً منطقيّاً»^(٢). أو أنه: «عملية فكرية تجري من خلال سلسلة عمليات أوليّة جزئية ومتتابعة»^(٣). أو أنه: «عملية ذهنية تُنجز بواسطة عمليات أساسية ظرفية ودائمة»^(٤).

ومن هنا كان استخدام ديكارت مصطلح «خطاب» عنواناً على كتابه الشهير في المنهج: «خطاب المنهج»؛ إعلاناً عن تحول عصر النهضة إلى العقلانية الحديثة؛ التي جعلت المعرفة تتأسس على منهجية: التطابق بين الموضوع والذات، وعلى التوافق بين الأشياء وتمثلاتها في الذهن، بحيث أصبحت الحقيقة، هي: «خطاب الذات عن الأشياء»، ومع كائط - فيما بعد - أصبحت الذات مرجعاً

(١) الموسوعة الفلسفية العربية: الاصطلاحات والمفاهيم، معهد الإنماء العربي، لبنان - طرابلس، ط ١، ت ١٤٣٣هـ - ١٩٨٦م (ص ٧٧١)، وينظر: د. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (ص ٩٢).

(٢) د. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (ص ٩٢).

(٣) أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية (ص ٢٨٧).

(٤) د. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (ص ٩٢).

للخطاب العلمي^(١). ومن ثم فإن استخدام الدراسة لهذا المصطلح «الخطاب» يستدعي حضور «العقل» بصفته فعالية فكرية ومعرفية؛ يصف الجنون ويتكلم عنه..

ثانياً: اتخذ «الخطاب» مع ميشيل فوكو وبخاصة في أعماله المتأخرة مثل: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، وولادة العيادة، والكلمات والأشياء، وحفريات المعرفة، ونظام المعرفة، والمراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، وتاريخ الجنسانية (إرادة العرفان - استعمال المتع - الانهمام/ الانشغال بالذات)، اتخذ مدى جديداً، وأبعاداً وحدوداً إضافية، غير تلك المعاني التي يحيل إليها والحدود التي يتحرك خلالها مصطلح «الخطاب» في حقول اللسانيات واللسانيات الاجتماعية. حيث تتجه عنايتها إلى: اللغة في طور التشغيل والاستعمال، وتدرس البعد الإنجازي في علاقته بالواقع.

لقد استفاد ميشيل فوكو من التحول المعرفي الكبير، الذي اقترن بظهور العلوم الإنسانية باعتبارها «خطاب الإنسان»، فجعل إنجازاتها الكبيرة، وموضوعاتها وحقائقها، مكان مساءلة فلسفية عميقة، انتهت به إلى نتائج خطيرة. يصفها هابر ماس في نقده لمشروع فوكو بأنها: «أكبر محاولة لنقد العقل الغربي وتعرية ملابساته السلطوية، وكل أشكال الهيمنة التي ترافقه، وأثبت أن هذا العقل ليس معرفياً محضاً، وليس واعداً بالحرية كما يزعم؛ وإنما هو متورط

(١) ينظر: د. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (ص ٩٢).

في ممارسات القوة والهيمنة والسلطة. هذه السلطة التي أصبحت تهيمن بشكل كلي على كل مستويات الوجود الاجتماعية للبشر^(١).

من هنا كانت هذه الموضوعات القصية التي تقع على تخوم النشاطات العلمية والاجتماعية: المواقع الأفضل لنقد فلسفة الذات، وقدرتها على المعرفة، ونقد العقل نفسه.

وقد قدّم فوكو للخطاب عدداً من التوصيفات؛ لأنه كان يريد أن يحفر لهذا المفهوم سياقاً دلاليّاً واصطلاحياً مميزاً من خلال عمليات متكررة بين التنظير والتطبيق. فهو كما يعرفه: «مجموعة من العبارات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية، أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها، واستعمالها خلال التاريخ... بل هو عبارة عن عدد محصور من العبارات التي نستطيع تحديد شروط وجودها»^(٢). أو هو «مجموعة من العبارات التي تنسب إلى نفس

(١) عبد السلام بلحسن، نقد هابرماس لفوكو: الخطاب الفلسفي للحدثة (مقالة - صحيفة الحوار المتمدن الإلكترونية) عدد: ٢٩٥٢، تاريخ: ٢٢/٣/٢٠١٠م. الرابط على الإنترنت:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=208658>

(٢) ميشال فوكو، حفریات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، لبنان - بيروت / المغرب - الدار البيضاء، ط ٢، ت ١٩٨٧م (ص ١٠٨). والعبارة/ العبارات في التعريف هي اللفظة التي اعتمدها سالم يفوت في ترجمته لـ (Enonciation/Enoncé)، ويرى الزواوي بغورة أن الترجمة الأفضل هي: ملفوظ/ ملفوظات - منطوق/ منطوقات، وذلك لأن: الملفوظ لا يمثل نمطاً =

نظام التكون»^(١). ويقصد بالتشكيلة الخطابية ذلك القطاع من الأشياء التي قيلت في المستوى النوعي للعبارات/ الملفوظات (تكوّن الموضوعات، تكوّن المواقع الذاتية، تكوّن المفاهيم، تكوّن الاختيارات الاستراتيجية)^(٢).

وبذلك يمتد تحليل الخطاب من الآفاق اللسانية والتداولية إلى ميادين واسعة، ترتبط بالأنظمة الثقافية، التي تنتج المعرفة وتوجهها، وتقنن تداول مكوناتها، وتبسط هيمنتها ومفاهيمها. إذ «ليس لنا الحق في قول كل شيء، ولا الحديث عن أي شيء في أية مناسبة. وأن أي شخص لا يستطيع أن يتحدث كيفما اتفق، في نهاية المطاف ثمة قدسيّة الموضوع، وطقوس المقام، وحق الأفضلية، أو حق التفرد الذي يتمتع به الشخص المتحدث»^(٣).

لم يعد الخطاب عند فوكو «وعياً يسكن مشروعه في الشكل الخارجي للغة، ليس الخطاب لغة تضاف لها ذات تتكلمها، بل

= خاصاً من الموضوعات اللسانية فحسب، بل يمثل في حدّ ذاته منظوراً خاصاً لهذه الموضوعات، لأنه معرف عبر علاقته بفعل التلفظ... (ينظر: ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ترجمة: عبد القادر الشيباني، د. ن، الجزائر - سيدي بلعباس، ط ١، ٢٠٠٧م (ص ٥٣-٥٤)، ود. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (ص ٩٥)، هامش رقم ٣٧).

(١) ميشال فوكو، حفريات المعرفة (ص ١٠٠).

(٢) ينظر: ميشال فوكو، حفريات المعرفة (ص ١٠٨).

(٣) جنياولوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب - الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠٨م (ص ٧).

هو ممارسة لها أشكالها الخصوصية من الترابط والتتابع»^(١). ليس الخطاب طريقة للتعبير، أو حديثاً متساوياً، أو تجلياً لذات واعية، تتأمل وتعرف وتعبر. ولكنه أصبح إمكاناً لنظام وشرطاً لوجود! وحقلًا تتمفصل فيه الذوات والعلاقات، ويجد فيها الخطاب مرتكزاً له. وبذلك يكون أول من أنشأ نظرية في وصف الخطاب بصفته ميداناً مستقلاً^(٢). فالخطاب مصطلح «يجمل فيه فوكو كل أشكال الحياة الثقافية وتصنيفاتها، ومنها فيما يبدو جهوده هو لإخضاع الحياة للنقد»^(٣).

الخطاب فضاء لمواقع وأنشطة متباينة للذوات، وليس موقعاً تقتحمه الذاتية الخالصة، إنه موقع للفعل، والصراع والرغبة، وفضاء للانتشار والتواتر والتوزع، ما يجعله مسرحاً للاستثمار، واستراتيجية تحدد ما يمكن أن يقال وما يمكن أن يرى. وليس بحثاً عن معنى خفي يكشفه التعليق والتأويل، أو بحثاً عن قيمة مسكوت عنها. ومن خلال الوقوف عليه وتحليله يمكن الكشف عن أنظمة الإفصاح والخطر، ف«إنتاج الخطاب في كل مجتمع إنتاج مراقب،

(١) ينظر: جنالوجيا المعرفة (ص ١٨).

(٢) ينظر: الموسوعة الفلسفية العربية: الاصطلاحات والمفاهيم (ص ٧٧١)، ود. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (ص ٩٢).

(٣) هايدن وايت، ميشيل فوكو، دراسة منشورة ضمن كتاب: البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا، تحرير: جون استروك، ترجمة: د. محمد عصفور، ضمن سلسلة المعرفة برقم (٢٠٦)، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط ١، ت ١٤١٦هـ-١٩٩٦م (ص ١١٤).

ومنتقى ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات، التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة»^(١).

(١) ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، ط ١، ت ٢٠٠٧م (ص ٤).

مفهوم الخطاب إجرائياً

وتأسيساً على ذلك فموضوع الدراسة في هذا الجزء الأول، هو الخطاب بمعناه الواسع، ونقصد به: طريقة تمثيل الجنون في الخطابات السائدة في التراث العربي. ونقصد بالخطابات السائدة: تلك الخطابات الرسمية الناجزة، المقررة من قبل أنظمة المعرفة والمراقبة، التي تمتلك الحق في الكلام عن الآخر/ الهامشي/ الجنون لامتلاكها رصيداً كافياً من الحقيقة والمعرفة بحسب النظام الثقافي.

في استخدام مصطلح الخطاب نحيل إلى: ضروب من المعرفة، ومجاميع من الملفوظات، والافتراضات والتوقعات، والتفسيرات والتأويلات، المنتشرة في المدونة الرسمية في التراث العربي: لغة، وفلسفة، وفقها، وأدباً.

أما مفهوم «الجنون» فعلى الرغم من توقف الدراسة عنده في الفصل الثاني، فيحسن التنبيه إلى أن الدراسة لا تحفل بمجرد المخالفة والمغايرة أو التمرد، إلا إذا كان ذلك موصوفاً بالجنون أو بأحد أسمائه؛ كما تصفه المدونة أو كما يصفه الرموز الثقافيون المعترفون في المؤسسة...

وبذلك يكون المفهوم الإجرائي الأكثر تحديداً لـ «خطاب الجنون»، والأكثر لصوقاً بمهمة هذا الجزء أيضاً، هو: مجموع ما قيل عن الجنون - في ما وقفتُ عليه - من الملفوظات والممارسات، التي تتكلم عن الجنون والمجنون في المدونة التراثية، وذلك بهدف «استبعاده وعزله» عن الممارسات الموصوفة بالعقل. وهو ما عنيْتُ به جمعاً وتحليلاً وتأويلاً ومقارنةً. والباحث على وعي بوجود مناطق آخر خصبة من المقاربة لخطاب الجنون في المدونة التراثية ذاتها؛ يمكن أن تكون مجالاً لدراسات أو اهتماماتٍ أخرى. غير أن هذه المنطقة - التي اخترنا أن نبدأ منها - من الأهمية بمكان بين: تجدر العناية بها لأنها منطقة تأسيسية لدراسة هذا الموضوع في تجلياته المختلفة. فـ «الجنون» و «المجنون» لا يوجدان ابتداءً، ولكنهما يوجدان مع الوعي بالتصنيف، وما يتبع ذلك من ممارسات العزل والنبذ التي تجعل من (الجنون - والمجنون) وجوداً بالفعل بعد أن كانا وجوداً بالقوة يصعب التنبؤ بتشكله على نحو ما دون غيره فضلاً عن دراسته. هذه منطقة مظلمة لا بد من إضاءتها، ولا معنى لدراسة أية منطقة أخرى في خطاب الجنون دون الإلمام بها ومعرفتها...

هذه المقاربة الأولية التي نقدّمها منشورة بين دفتي هذا الكتاب، تمثل الحلقة الأولى، وهي: خطاب الاستبعاد والنفي، من مشروع ماثل في ذهن الباحث ينجز على ثلاث حلقات.

وهذه الدّراسة ضروريّة جدّاً من وجهة نظرنا؛ لأنها ستجعل من دراسة الحلقتين الآخرين ممكنة من الناحية الإستمولوجية، وتعطيها

معناهما، وتكشف عن آليات العمل فيهما. ومن ثمّ فالباحث يعمل على استكمال مشروعه: «خطاب الجنون في التراث العربي» من خلال بحثين آخرين يتبعان هذا البحث التأسيسي. وسيكون البحث الثاني عن: «خطاب الجنون: الاستعادة والحضور»، وسيكون البحث الثالث عن: «خطاب الجنون: صوت المجنون». وبذلك يكتمل مشروع الدراسة من زاوية النظر التي يتبناها الباحث، ويرجو من الله أن ييسر له استكمالها.

فصول الكتاب ومباحثه

قسم الكتاب إلى مقدّمة وستة فصول وخاتمة، أردت منها أن تقوم بتحقيق هدف الدراسة، في الفصل الأول وقفت الدراسة على «مفهوم العقل» من خلال أربعة مباحث، جعلت الأول منها: مدخلاً في بيان علاقة العقل بالجنون، وأهمية البدء من العقل لتفحص معنى الجنون؛ إذ يستخدم العقل في الأدبيات العربية مقابلاً للجنون. وقد رأت الدراسة أن يكون تحديد مفهوم العقل تأسيساً لفهم الجنون، لا سيما أن العقل هو الجهاز المعرفي والبياني المخول بفهم الجنون والتعبير عنه. وفي المبحث الثاني وقفت الدراسة على معاني العقل في اللغة العربية، للتعرف على المعنى الذي تحدّر منه الاستعمال الاصطلاحي. وفي المبحث الثالث عرضت الدراسة بعض الاستخدامات البيانية المحفوظة عن العقل، لأن تلك المحفوظات تسري في المعارف والمدونات، وتتداول رواية وكتابة على نطاق ثقافي واسع. ومثل هذه الأقوال العامّة - كما نبه مطاع صفدي - هي اللغة الشائعة التي تثرت في صيغة المؤسسات المجتمعية المستقرة؛ ولذلك تستهلك على نطاق ثقافي واسع، وتدخل في نطاق القول الذي يتلقفه الوعي الفردي أو الجمعي بارتياح، بحكم

ترابطه بأشكال السلطة الظاهرة أو المضمرة^(١). وفي المبحث الرابع تناولت الدراسة «العقل» من خلال توصيفات العلماء في حقول معرفية متباينة؛ ليكون وقوف الدراسة على مفهوم العقل بصورة عامة وشاملة، وسنحاول توجيه الاختلاف، وبيان ما به يكون العقل عقلاً!

وكما كان الفصل الأول عن «مفهوم العقل» جاء الفصل الثاني عن «مفهوم الجنون»، وهو مفهوم يبدو على درجة كبيرة من التعقيد والالتباس، ولذلك حرصت الدراسة على أن تقاربه من خلال ستة مباحث. جاء المبحث الأول مدخلاً حول طبيعة «الجنون» في الثقافة العربية. وحاولت في المبحث الثاني استقراء المعاني الجزئية المعجمية للجنون من خلال التدقيق في ستة عشر معجباً، ثم ختمت المبحث بمحاولة تقرير الدلالات العامة الجامعة للمعاني الجزئية للمادة. وفي المبحث الثالث: استعرضت الدراسة بعض الاستخدامات اللغوية للفظ «الجنون» في الحياة العامة. وقاربت في المبحث الرابع موضوع «مفهوم الجنون في القرآن الكريم»، ثم تبعة المبحث الخامس وكان عن «مفهوم الجنون في السنة النبوية». وفي المبحث السادس ركزت الدراسة على الكشف عن مفهوم الجنون الثقافي/ المفارق للنظام!

وفي الفصل الثالث وقفت الدراسة على موضوع «تلقي الجنون في اللغة»، من خلال ثلاثة مباحث، نبهت في المبحث الأول على مسألة كون «اللغة سلطة»، لأنها ممارسة اجتماعية تنطوي على وعي

(١) ينظر: مطاع صفدي، استراتيجية التسمية: في نظام الأنظمة العربية، منشورات مركز الإنهاء العربي، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٩٨٦م (ص ١٧-١٩).

وإجبار؛ فليست اللغة تبليغاً فحسب. وفي المبحث الثاني رصدت اعتراف اللغة بالجنون؛ حيث إن منح الشيء اسماً وتسمية المصاب به مجنوناً هو اعتراف منها بهوية مستقلة للجنون. وقد لاحظت الدراسة اتساع الحقل اللغوي وغناه بمختلف الدوال، التي تدل على الشراء المعرفي - الاجتماعي. وفي المبحث الثالث عالجت الدراسة مسألة تصنيف اللغة للجنون.

وكان الفصل الرابع عن «تلقي الجنون في منطقة المفاهيم»، حيث وقفت في المدخل على قيمة هذه المنطقة في الدراسات الثقافية؛ لأنها تقدم مفهوم الجنون الرسمي لسائر المنتمين للثقافة، وتكوّن من خلال حضورها المكثف وجهة النظر، التي تتناسل عبرها طائفة من الممارسات إنتاجاً وتلقياً. وفي المبحث التالي تناولت توصيفات الجنون في المدونة الرسمية، وقسمناها إلى ثلاثة مستويات؛ يتصل بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضاً، ويفصح بعضها عما ألمحت إليه الأخرى.

وفي الفصل الخامس توقفت الدراسة عند «خطاب الجنون في ممارسة المؤسسة الفقهيّة»، وعالجته من خلال مبحثين: الأول منهما كان مدخلاً بعنوان: «صناعة القوالب الإدراكية»، التي تتحكم بها المؤسسات المختلفة، من خلال توفير الخبرة والمرجعية الضرورية، التي تهيم الأفراد لاتخاذ مواقف ثقافية واحدة حيال الوقائع الثقافية المختلفة؛ ومنها الجنون، مما يوفر درجة من الانسجام والوحدة الثقافية - الاجتماعية. وفي المبحث الثاني رصدت الدراسة مظاهر الممارسة الفقهيّة، التي تكشف عن موضع الجنون - المجنون من المدونة

الفقهية محل الدراسة، من خلال أربع وقفات هي: الفعل، والأفعال الطبيعية، والقدرات الطبيعية والإحساس، ومقول المجنون.

وفي الفصل السادس، تناولت الدراسة «خطاب الجنون في الممارسات الأدبية». وقد وجدها الباحث تنقسم إلى ثلاث صور، وقف عند كل صورة منها مستشهداً ومحللاً. وفي الوقفة الرابعة تتبععت الدراسة عمق هذا الموقف الرسمي من الجنون في الممارسة الأدبية المؤسسية إلى يومنا هذا من خلال الوقوف على أربع استجابات لباحثين ينتمون إلى المؤسسة الأدبية.

ثم ختم الباحث الدراسة بخاتمة ضمنها أبرز النتائج التي انتهت إليها الدراسة.

في المنهجية

حرص الباحث على الإيجاز ما استطاع، ولذلك استخدم الهامش بكثرة عند وجود الحاجة إلى الإحالات، التي تؤسس للموضوع أو الحكم الذي تقرره الدراسة، حين يكون ذكر ذلك ضرورياً كمرجعية يطمئن إليها القارئ؛ دون أن تقطع على القارئ تدفق السياق.

وإذا كنت لم انشغل بالترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في الدراسة، تجنباً لتضخم العمل، فقد حرصت على ترجمة موجزة للأعلام الذين تدعو الحاجة إلى التعريف بهم، إما لأن التعريف بهم جزء من الحكم، الذي لا يسوغ قبوله إلا بأن يكون حاضراً في ذهن القارئ، أو للحاجة إلى التعريف بهم ليعرف القارئ مكانة العلم من المعرفة، التي نحكيها عنه حين يكون من حقل معرفي غير الحقل الأدبي، وكل ذلك كان في نطاق محدود جداً، ولا يكاد يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

وملتُ إلى تمثّل الآراء والتعبير عنها مع الإشارة إلى مصادرها - كما تقتضيه الأمانة العلمية - للتخفيف من النقول عن الآخرين قدر الإمكان. وأبقيت على النص المنقول أو المقتبس كما هو، وميزته بعلامات التنصيص، ولم أسمح لنفسني بالتدخل فيه بالتغيير أو التعديل، حتى مع

وجود خطأ لغوي أو مطبعي؛ إلا أنني أنبه لذلك في الهامش. وإذا كان في النص إحالة على متقدم أو سقط، أو إحالة إلى مبهم تقدمت الإشارة إليه خارج حدود الاقتباس، ولا يسمح الاستشهاد بذكر الكلام بتمامه، أو كان إدراك المعنى وقفاً على معرفته؛ فإني أضعه بين معقوفين [].

أما عند الإحالة إلى المصادر أو المراجع فكنتُ أرجع إلى المصدر الرئيس وأكتفي به، إلا إن وجد في المرجع بعده زيادة من تفصيل أو تحليل أو رأي فإني أذكر المصدر ثم المرجع، وحين لا أتمكن من العودة إلى المصدر فإنني في الغالب أشير إليه بالجزء والصفحة، ثم أذكر المرجع الوسيط الذي نقلتُ عنه، وأصدر الإحالة بلفظة (نقلاً عن)، تحقيقاً للأمانة العلمية. وعندما تكثر المصادر أو المراجع في الحاشية الواحدة فإني لا أراعي أي اعتبار في الترتيب.

وأستخدم صيغة المضارع المبني للمجهول حين أحيل للمصادر، إجلالاً للقارئ عن استخدام صيغة الأمر الدارجة في التوثيق العلمي. وكنت أذكر التفاصيل العامة للكتاب أول ورود، ثم أكتفي بذكر المؤلف واسم الكتاب والجزء - إن وجد - والصفحة في المرات التالية، وأكرر ذلك حتى عند توالي مرور الكتاب مرة أخرى، دون استخدام ألفاظ «السابق»، أو «نفسه» أو «المرجع السابق». وكنت أبدأ باسم المؤلف ثم اسم الكتاب، وحين أحيل في الهامش إلى اسم مؤلف ثم يأتي ذكر كتابين له في هامش واحد، فإني لا أورد اسمه في المرة التالية، وأكتفي بالقول: وكتابه، أو أستغني بالعطف فقط..

وربّت المصادر والمراجع على أسماء المؤلفين وفق الترتيب الهجائي

(أ - ب - ت - ث) فإن كان للمؤلف أكثر من كتاب بدأت بالأول منها حسب الترتيب الهجائي، وإن كان الكتاب نفسه ورد بأكثر من طبعة أو تحقيق بدأت بما تيسر لي، ووضعت الأسماء كما جاءت عليه في الحاشية حتى لا يضل القارئ، سواء ورد اسمه بالكنية كـ: (أبي حيان - ابن الجوزي)، أو بالشهرة كـ: (السيوطي - البغدادي) أو بالاسم، وإذا كانت أسماء المؤلفين تتجاوز اثنين، فإني أثبت الأسماء التي على الغلاف في الهامش، أما في قائمة المصادر والمراجع فأذكر أول الأسماء بحسب ما ورد في الهامش وأكتفي بكلمة (وآخرون) عن ذكرهم.

ختاماً أودُّ التأكيد: أن هذا البحث - برغم اجتهادي في تحري الحق - ليس أكثر من وجهة نظر أو قراءة أولى؛ سواءً في بنائه وخطته، أو أسلوبه وإجراءاته، أو في أدواته ووسائله، أو نتائجه وأحكامه، فالبحث ابن تصور بشري محكوم بظروف وملابسات وزمان، ورؤية تتسع بالمدادومة والمطالعة. ما وافق الحق منه أولى بالموافقة، وما جانبه وخالفه؛ فأعيد نفسي من الإصرار عليه متى ظهر لي الحق، وأسأل المخالف أن يجدي فيما منح نفسه من الحق بالمخالفة عذراً فيما خالفته إليه أو فيه.

والله خيرٌ معيناً وموفقاً ومسداً وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الباحث

د. أحمد بن علي أحمد آل مريع

المملكة العربية السعودية - أبها

aaljooni@hotmail.com